هويتنا بين عولمة الصراع وعولمة التعارف(*)

أضحى موضوع الهوية أو ما يعرف بالخصوصية الثقافية وما يمكن أن تثيره من التباس في علاقتها بظاهرة العولمة، من أكثر المواضيع تداولاً في الدوائر الثقافية الغربية وقد بدأ يبحث له عن موطئ قدم في ساحتنا الثقافية العربية منذ نهاية العشرية الأخيرة من القرن الماضي. ولقد تعددت موضوعاته بتعدد حقوله المعرفية وتشابك مقارباته المنهجية وتعقد إشكالياته التي وللأسف غالباً ما تختزل في تصورات مسبقة تركن إلى الأيديولوجيا كحل يعفي الضمير الجمعي من مواجهة ما تفرضه أزمة الهوية من قضايا تتسم بالتغير قدر اتسامها بالثبات.

إن التنوع الإشكالي لعلاقة الهوية بالعولمة من شأنه أن يجنب الباحث الوقوع في مطب إرساء الثوابت وتحديد المضامين للحكم على الظاهرة بالسلب أو الإيجاب ليتحول البحث إلى مساءلات حول الذات والآخر في علاقتهما الجدلية والديناميكية. وهو ما حاولت قدر الجهد ابتغاءه من خلال طرح موضوع الهوية كجوهر وجودي لا غنى للفرد والجماعة عن تبنيه وكصيرورة تاريخية في

(*) قدمت هذه الورقة في المؤتمر الدولي "العولمة وأولويات التربية" الذي نظمته كلية التربية بجامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية خلال الفترة 20- 22 مارس 2004.

علاقتها بالهويات الأخرى، مع التركيز على طبيعة العلاقة التي تربط الهوية بظاهرة العولمة.

في هذا الفصل، حاولت أن أتجاوز ثنائية (الذاتية/ الموضوعية) معتبراً طرفيها عنصرين أساسيين في عملية إدراكي للظاهرة المطروحة في أعمال المؤتمر وذلك من خلال ما حاولته من تسجيل موضوعي للظاهرة مع استنباط ذاتي لبعض الخلاصات التي قد يعتبرها البعض تسجيلاً لموقف ما. وهو ما قد يُقرأ على أنه تنصل مما تفرضه الموضوعية من صرامة وحيادية. والحق أنني أثناء طرحي لمثل إشكالية الهوية، لا أدعي الموضوعية لأنني وبكل بساطة لا أؤمن بما تعنيه الموضوعية من انفصال الباحث عن الظاهرة ودراستي لها دراسة خارجية صرفة. فأنا جزء من الظاهرة ولا يمكنني أن أنفصل عنها، وإذا ما تحدثت عن الهوية وعلاقتها بالعولمة فليس بغية الوصول إلى نتائج علمية تحول وجهة نظري حول الموضوع إلى حقائق علمية دامغة، وإنما أتحدث عنها من منطلق يكاد يكون شخصياً، يعكس أول ما يعكس مفهوماً ذاتياً لهذه الإشكالية حتى وإن كانت المناهج التي لجأت إليها تتميز بكثير من العلمية. وإن ذاتيتي هاته لا أراها تشكل خطراً يهدد جدية الطرح ولا صلابة التأسيس، بل أراها عاملاً مساعداً على تناول طرحي هذا في إطار أشمل يصور مسار هوية في طور التشكل محكومة بجدلية الأنا والآخر.

سيدور مبحثنا حول الإشكالية التالية: هل مصير علاقتنا مع الآخر آيلة إلى الصراع لا محالة أم أن هناك سبيلا آخر يمكن أن نسلكه نحن والآخر من أجل تعايش سلمي ألا وهو سبيل الحوار؟ وإلى أي مدى يمكننا التحرر من الحواجز الموضوعية والذاتية التي

تحـول دون تواصلنـا مـع الآخر، في ظل عولمة لـم تجد من حطب تغذي به نار فتنتها سـوى موضوع صراع الحضارات والهويات؟ ولا ينبغي إدراج أسئلتي هذه في إطار ما وصفه د. نبيل علي أثناء تصنيفه للخطاب الإسـلامي عبـر الإنترنت بخطاب المهادنة المتسـم بالطابع البراجماتـي التوفيقي الـذي ينادي بمهادنة المجتمـع الغربي إلى حد البحث عن صيغة أوروبية للإسلام" فقط لأننا ننطلق من مواقع بلدان أوروبا"[1] لأنني لسـت مـن أنصار الخطط التكتيكيـة في صراعي مع الآخر في المجال الثقافي حتى وإن اتسـمت علاقتي بهذا الآخر في الآونة الأخيرة بتصاعد حدة الهجوم الشرس والوحشي بعد أن تخلى عـن قناعـه العلمي ضد كل ما يمت بصلة إلى هويتي، ولا أدل على ذلك من السـخرية الوقحة بالإسلام التي تدنست بها صفحات رواية "الأرضيـة" لصاحبهـا الفرنسـي Michel houellebecq[2] أومن الحنق العنصري الذي انبعثت رائحته من بين ثنايا كتاب "الحنق والكبرياء" للكاتبة الإيطالية Oriana Fallaci[3]. ولو أن هذه المفرقعات انفجرت قبـل عقديـن مـن الزمـن، حيـن كان مفكرونـا مضطرين إلـى اعتماد أسـلوب محاكم التفتيش الفكرية للثقافة الوافدة حتى يكسـبوا ذاتيتنا الحضاريـة الطريـة الجسـم مناعـة ضد عدوى هـذه الأوبـاء، لعثرتم فـي طرحي هـذا على كم هائل من السـباب والشـتم لأعـداء الأمة.

(1) علي، نبيل، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ضمن سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة 2001، ص 476.

(2) Houellebecq, Michel, Plate-forme, Flammarion, Paris, 2002.
وهي رواية تعرض فيها صاحبها إلى السخرية من الإسلام بعدّه دين الأغبياء.

(3) Fallaci, Oriana, La Rage et l'Orgueil, Plon, Paris, 2002.
وهي مجموعة خواطر حول الإسـلام وأحداث 11 أيلول، وقد نعتت الكاتبة المسـلمين بأنهم يتكاثرون كالفئران.

أمـا وأن الأمر قد تطـور الآن وأصبح لمشـروعنا الحضاري مفكروه ومثقفـوه الذيـن بإمكانهـم التعاطي الناضج مع كل مـا هو وافد دون عقـدة خـوف وكراهية أو اسـتعلاء ونرجسـية، فالأدعى لـي كمثقف يعيـش عصـره أن أنطلـق فـي رؤيتي للآخـر كما هو فـي حقيقته، لا كما أتصوره أنا من وراء منصة القضاء[1] وألا أنشـغل بالفقعات التي تنبعـث مـن هنا وهنـاك. وهذا انطلاقاً مـن رؤية مبدئيـة قرآنية تحدد تعاملنا مع الآخر في إطار ما اصطلح القرآن على تسـميته بالتعارف، وهذا ليس تكتيكاً ولا اسـتراتيجية وإنما هو جوهر التوحيد المفضي إلى التعدد والاختلاف. إذ يؤكد التصور الإسـلامي على سـنة التنوع والتعدد التي خلق الله عز وجل على أساسها جميع المخلوقات من جمـادات ونباتـات وحيوانات، وإننا لنقرأ القـرآن الكريم في معرض التنويـه بقـدرة الخالق عـز وجل وإبداعه فـي الخلق مـا يؤكد اطراد هذه السنة الإلهية في سائر المخلوقات والتي جعلها الله مختلفة في أشكالها وألوانها ووظائفها، ولكنه الاختلاف الذي يقودنا عبر تناسقه وتناغمـه إلى حقيقة واحدة ووحيدة، إنهـا حقيقة التوحيد. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُـودٌ * وَمِـنَ النَّـاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَـى اللَّـهَ مِـنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطـر، الآيتان 28-27. وفي سـورة الروم ينوه القرآن الكريم باختلاف الألسـنة والألوان بين بني البشر، والذي يعني اختلاف اللغات واللهجات بين الناس وهذه

(1) بن غنيسة، نصر الدين، السريالية وجهة نظر، مجلة البيان الصادرة عن رابطة الأدباء في الكويت، عدد 382، سنة 2002، ص 79.

حقيقة ثابتة عرفها البشر منذ القديم ولا تزال قائمة حتى في عصر التواصل والتقارب، وهو لاشك من مظاهر التنوع العظيمة بين بني البشر؛ إذ إن الإنسان إنما يعبر عن أفكاره ومشاعره وينتج ثقافة وأدباً لحصول التواصل بينه وبين الآخرين[1]. وما اختلاف الألسنة إلا دليل على اختلاف الثقافات وتعددها، فالصلة بين اللغة والثقافة صلة وثيقة، وإذا اختلفت الثقافات تنوعت الحضارات. وإن اختلاف الألسنة ليس دعوة من الله إلى التقوقع اللغوي وبالتالي الحضاري وإنما هي دعوة إلى التعارف. والتعارف بالمصطلح القرآني أو ما يعرف اليوم بحوار الحضارات يعد مبتغى يجب أن تصبو إليه كل الثقافات والأديان فإن لم يكن من أجل تواصل حضاري فلا أقل من أجل تجنيب البشرية الصراعات والحروب التي تأتي على الأخضر واليابس والناجمة غالبا عن سوء تفاهم تستغله الفئة النافذة لتحوله إلى عداوة وبغضاء. والحقيقة أن مثل هذا التواصل لا يمكن أن يتحول إلى واقع ملموس إلا بتوفير مجموعة من الممهدات التي من شأنها إزالة عقبات ذاتية وأخرى موضوعية. وعلى رأس تلك العقبات التي علينا أن نتجاوزها مهمة تحديد من نحن ومن هذا الآخر الذي نتهمه بعزمه على عولمتنا رغماً عنا. إشكالية تنشد رفع اللبس ولن يتم لنا ذلك إلا إذا كانت الإشكالية واضحة في جوهر تساؤلها حتى نحصل على نتائج واضحة على صعيد التحليل والنقد. وهو الأمر الذي يقودنا إلى محاولة إضفاء أكبر قدر ممكن من الوضوح على التساؤل بتحديد فضائه ومكوناته الأساسية. ولعل أول ما ينبغي البدء

(1) جابالله، أحمد، الخصوصيات الحضارية وموقعها في الحوار بين الحضارات، مجلة الإحياء، تصدرها كلية العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية، الجزائر، عدد 6، سنة 2002، ص 160.

به هو استبعاد الفكرة الجاهزة التي تتبادر إلى الذهن لتضفي وضوحا زائفا على الموضوع، الفكرة التي تعلن عن نهاية الأنا والآخر في عصر العولمة حين تربط بين واقع جديد متمثل في انتشار تكنولوجيا المعلومات وتحويل العالم إلى قرية إعلامية وبين فكرة انتهاء عصر الهوية وهو ربط غير منطقي لأن الواقع الدولي يحول دون الربط بين المقدمة ونتيجتها وذلك لعدة عوامل أهمها:

أن مصطلح العولمة ما زال تعبيراً غائماً يكتنفه كثير من الغموض إن لم نقل التناقض، إنه يعني فيما يعنيه ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك، إنها نسق ذو أبعاد عامة تشمل المال والتسويق والمبادلات السياسية والفكر والأيديولوجيا، ترمي إلى إزالة الحواجز والحدود أمام حركة الإنسان أفرزتها الثورة المعلوماتية وما رافقها من تطور في مجالي الاتصال والإعلام[1]. وإذا كان هناك من خاصية أساسية تتميز بها العولمة على الصعيد النظري على الأقل فهي الشمولية الكونية، إلا أننا وبإلقائنا نظرة على الواقع الدولي ندرك دون عناء يذكر أن العولمة قد انحصر نطاق تأثيرها على شعوب دون أخرى وشرائح اجتماعية دون أخرى، فأن نستعمل الإنترنت في كل من القاهرة أو باريس أو واشنطن أو دكار لا يعني أن حركة رؤوس الأموال وتطور التجارة العالمية سوف تنعكس خيراتها على مواطني هذه الدول على نطاق واسع يشمل كل أفراد الوطن، الحقيقة أن فئة قليلة بإمكانها أن تساهم في العولمة بشكل يعود عليها بالثراء، دون أن تكون لها القدرة على التأثير في

(1) أبو الريش، موسى، العولمة والمستقبل، مجلة الكلمة تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، عدد 25، سنة 1999، ص 104.

مسار العولمة وتوجهاتها الاقتصادية والثقافية وسواء أتعلق الأمر بالشمال أم بالجنوب[1]، إذ ذلك محصور في المؤسسات الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي ومجموعة الثمانية وغيرها التي تتيح لفئات دون أخرى ولشعوب دون أخرى استهلاك منتجات العولمة بينما تظل أغلبية البشرية مهمشة، تتخبط في مشاكل الحياة اليومية من بطالة وأزمة سكن وأمراض...

والعامل الآخر هو أن للعولمة مجالا جيو - سياسيا تنطلق منه؛ إنه الغرب الذي هو في طور البحث عن هوية جماعية تتيح له تسويق نظرته المركزية للعالم التي تلبس لبوس الخير على المتفوق بينما ترمي دون عقدة ذنب الغير بتهمة الشر فقط لأنه يرفض أن يكون غير ذاته. حين يذهب Alain Gresh في كتابه "الإسلام موضوع تساؤل" إلى أن هذه العولمة ليس لها مركز، فهو يرى أن المصالح القومية للدول الكبرى غير مرتبطة بالرأسمال الذي يبدو أن لا وطن له[2]، إلا أن تراكم الثروة في محور الشمال ونضال محور الجنوب من أجل تجاوز عتبة الفقر يبرز أن الرأسمال له في جميع الأحوال وطن محدود بالمصالح القومية[3]. فالمؤسسات النقدية الدولية تحت هيمنة الولايات المتحدة والدول الأوروبية تراهن على رأسمال تحكمه ضوابط جيوسياسية مرهونة بالمصلحة القومية، فهذه العدالة الفرنسية تغض الطرف عن المعاملات المشبوهة التي تمارسها شركة البترول ELF الفرنسية للحصول على أسواق كوريا

(1) Gresh, Alain, l'Islam en question, Sindbad, Paris, 2000, p. 75.

(2) المصدر السابق، ص 76.

(3) الجابري، محمد عابد، العولمة ومسألة الهوية، مجلة فكر ونقد، الرباط، عدد 21، سنة 1999، ص 13.

الجنوبية من خلال تقديمها رشاوى لمسؤولين كوريين، لكن ما إن بدأ بعض مسؤولي ELF التلاعب بهذه الأموال وتحويلها لحساباتهم الشخصية حتى تحركت الآلة القضائية لتطال رؤوساً سياسية كبيرة كوزير الخارجية الأسبق Rolland Dumas. وعليه، فإن مقاربة العولمة بمنظار واقعي يضعنا أمام ظاهرة محصورة على نطاق ضيق، غير مكترثة بالأغلبية ولا تلتفت إلى موضوع الهوية إلا بالقدر الذي يميل فيه ميزان القوى لصالحها في صراع نفوذ لا يرحم. ولذلك فالتقابل بين العولمة ومسألة الهوية يغدو وكأنه نتاج فكرة جاهزة مضللة ليس لأنها خاطئة كليا بل لأن مثل هذا الربط يجر الباحث إلى تركيز النظر على هذا التقابل وحده وقراءة الموضوع وكأنه مظهر من مظاهر التقابل أو الصراع بينهما، وهو ما أعطى تبريرا وهميا لخطر اندثار هوية الأنا وهوية الآخر.

ولنعد إلى تتبع المواقف المتناقضة التي أفرزها وهم خطر اندثار هوية الأنا وهوية الآخر بفعل عولمة ترمي إلى إنتاج إنسان جديد دون ذاكرة. إذ بينما يدعو فريق إلى كبت الخصوصية الثقافية استسلاما لحتمية تاريخية لا فكاك منها، مؤكدا على أن العولمة جاءت لتعلن عن نهاية التاريخ وسيادة النموذج الغربي الديموقراطي، وهي فرصة تاريخية تمنح للشعوب غير الغربية لتتحرر من كل الهيمنات، يدعو آخر إلى العض على الهوية بالنواجذ وجعلها درعا لمواجهة الآخر الذي لا بد أن يكون معادياً فقط لأنه يختلف عنا. وحتى نتمكن من مقاربة التناقض الذي يميز الموقفين، فلا مناص لنا من التطرق إلى مفهوم الهوية ومدى تبلوره في كل من الشرق والغرب، وهو ما يحيلنا إلى ما أشرنا إليه من قبل في ضرورة تحديد الأنا

والآخر. سنركز بحثنا إذن في الموضوع المطروح على مجال أوسع خارج ضغط تلك الفكرة الجاهزة، معتمدين معطيات الواقع كما هي منطلقين من توضيح المفاهيم الأساسية المستعملة في البحث. ولنبدأ بتحليل طبيعة الهوية ووظيفتها. فإذا كانت وظيفة الهوية الأساس هي "صياغة الكيان المجتمعي بما ينسجم والمنطق العقدي والتاريخي لتلك الجماعة" من أجل "تحقيق استقرار نفسي واجتماعي كشرط لتحسين ظروف المعيشة المعنوية والمادية"[1] فإن هذه الوظيفة التي ترمي إلى الاستقرار تختزن في جوهرها الحركة. فالهوية أيا كانت ذات مضمون حركي لا يمكنه أن يستسلم للسكون والجمود؛ فهي في حالة تشكل مستمر عبر التاريخ، ولا يمكننا أن نجزم بانتهاء بناء الهوية معلنين بذلك عن نهاية التاريخ. ومرد حركية الهوية هي علاقتها الجدلية بالهويات الأخرى التي تساهم سلبا أو إيجابا في تشكلها. فالهوية تستمد تعريفها وحتى بناءها من علاقتها بغيرها من الهويات. فهي علاقة ذات بعدين؛ بعد إدماجي - اندماجي وبعد إقصائي، ولا يمكنها أن تمارس وجودها بمعزل عن بقية الهويات، لأنها حالة وجودية قد يعيشها الفرد والجماعة بشكل غير واع كمعطى حضاري ثابت عبر التاريخ، لكن ما إن تصطدم بالآخر سواء في لقاء سلمي أو مواجهة حربية حتى يصيبها الارتجاج حين تعيدها المواجهة إلى ساحة الوعي[2]. وهو الأمر الذي حدث لكل من الحضارة الإسلامية

(1) محفوظ، محمد، الإسلام والغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، سنة 1998، ص 150.

(2) Schnapper, Dominique, Existe-t-il une identité française, in l'Identité, sous la direction de Jean claude Ruano-Borbalan, Ed. Scinces Humaines, Paris, 1998, p. 298.

والمسيحية حين واجهتا عصر النهضة الأوروبية، فالأولى أصابها الارتجاج حين حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م بينما سبقتها الثانية حين رفعت الثورة الفرنسية عام 1789 شعار "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قس"[1].

* صدمة الغرب الهوياتية:

على الرغم مما أثير في الغرب العلماني من جدل حول شرعية المؤسسات الكنسية والتربوية والأسرية في تدخلها في تشكيل الذات الغربية، إلا أنها لا زالت تحتفظ بفعاليتها في تحديد آليات الانتماء الجماعي للفرد من خلال إمداده بالمبررات الرمزية التي تمكنه من تحقيق ذاته الوجودية في تناغم تام مع المجموعة. وهو ما يفسر في جانب عودة الجدل حول الهوية إلى الواجهة العلمية؛ إذ أصبحت في قلب جل المحاولات لتحليل التحولات الاجتماعية الحالية في الغرب. إن أهم ما يبرر التوجه نحو الهوية كوعاء معرفي لاستيعاب التحولات الحضارية في الغرب هو ظهور بوادر وصول فلسفة التنوير إلى طريق مسدود في ابتعاث الفرد كوحدة وجودية تتأسس عليها المجتمعات الحديثة تحت فضاء لائكي ديموقراطي، الأمر الذي اضطر هذا الفرد إما إلى البحث عن هوية تستجيب لحاجاته الوجودية خارج إطار الثقافة الغربية، بارتمائه في أحضان الديانات الشرقية بما فيها الإسلام، وإما اللجوء إلى المساهمة في إعادة تشكيل هوية جماعية ذات أبعاد مسيحية، ظن الكثيرون أنها اندثرت بانبلاج عصر النهضة. وهكذا نلحظ عودة المؤسسات القديمة لتنخرط من

(1) Garaudy, Roger, Le testament philosophique, Tougui, Paris, 1985, p. 37.

جديد في إعادة بعث منظومة القيم الدينية والذاكرة الطقوسية التي من خلالها يحقق الفرد أمنه الوجودي، وما تنامي سلطة الفدراليات الأسرية ذات التوجهات المحافظة في تحديد الخيارات التربوية وازدياد المدارس الخاصة المسيحية سوى دليل على انبعاث البعد الديني في رحلة إعادة بناء الذات الغربية. إذ بعد أن أعلن عن موت الدين وانهيار الروح وبروز قيمة العقل كمرادف للكمال الإنساني وبروز قيمة المواطنة كبديل علائقي تضبط من خلاله المؤسسات الديموقراطية والدولة - الوطن العلاقات بين الأفراد، ها إن البعد الروحي يعود من جديد كعامل توازن نفسي واجتماعي، وها إن النزعة العرقية والطائفية، من الناحية الأخرى، أضحت تشكل عاملا يهدد المواطنة[1].

إن أوروبا الغربية هي بدورها تعيش هذه الأيام صعود المطالب الهوياتية، سواء أتعلق الأمر ببريطانيا أم فرنسا أم إسبانيا أم بلجيكا أم إيطاليا. لقد نمت مجموعة من الحركات الاحتجاجية ذات طابع هوياتي وفيما يكتفي بعضها بالمطالبة بالاعتراف بخصوصيتهم الثقافية يذهب البعض الآخر إلى حد المطالبة بالاستقلال السياسي عن الوطن الأم كما هو حال جزيرة كورسيكا في فرنسا وإيرلندا في بريطانيا، حيث لجأت بعض الحركات الاستقلالية إلى اللجوء إلى القوة للضغط على الحكومات المتعاقبة بغية الحصول على مطالبها[2].

إن عودة التشنجات الهوياتية داخل المجتمع الغربي الذي

(1) Abastado, Claude, Introduction au surréalisme, Bordas, Paris, 1986, p. 15-16.

(2) Thual, François, les conflits identitaires, Ellipses, Paris, 1999, p. 58.

هـو بصـدد عولمة العالم، تكشـف لنا أن العولمة لم تسـتطع إذن أن تمحو هوية الآخر، فهل هي حقيقة تشكل خطرا على هوية الأنا من خـلال ما يطلق عليه اليـوم بصدام الحضارات، علـى رأي صاموئيل هنتنغتون؟[1].

* صدمة الشرق الهوياتية:

إذا كانـت لنبـوءة صاموئيـل هنتنغتون حسـنة واحـدة، فهي أنها دفعتنـا نحـن سـكان القريـة الكونيـة إلـى التفكيـر بجدية فـي الوجه الإيجابـي والمضـاد لنظريته أقصد حـوار الحضارات وهـو حوار لم نكـن نحن المسـلمين غربـاء عنه، وعلينـا ألا نرفضه بحجـة أنه غير نابـع مـن ضـرورة اجتماعية أو إشـكالية فكريـة أو مصلحة سياسـية للمجتمعات العربية الإسـلامية، بل جاء من خارجها. وأصحاب هذه النظـرة يعللون ذلك بأن العقل الإسـلامي مدفوع إلى تقديم إجابات عن سـؤال لم ينبع منه ولم يمثل إشـكالية ملحة[2] والحقيقة أن هذه الإشكالية إشكالية حوار الآخر - الغربي على وجه الخصوص - لم تغـب عـن المفكرة الثقافية الإسـلامية منـذ أن وطأت أقـدام نابليون بونابـرت أرض مصر عـام 1789م، كانت الصدمة التـي هزت الهوية الإسـلامية فـي بديهياتهـا وأربكت مرجعيتهـا فظهر مـن حينها حوار حضـاري بالوكالـة بين أبنـاء الأمة الواحدة منقسـمين إلـى نهضويين أصحـاب نظريـة الجامعـة الإسـلامية ومـن قابلهـم من دعـاة التنوير

(1) Schlesinger, A. M., La Désunion de l'Amerique, L. Levi, Paris, 1993, p. 168.

(2) الميـلاد، زكـي، المسـألة الحضارية كيف نبتكر مسـتقبلنا في عالـم متغير؟، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، سنة 1999، ص 69.

المراهنين على التبعية المطلقة للغرب كشرط للانطلاق الحضاري وقد تعددت ثنائيات هذا الحوار إن جازت التسمية بتغير الظرف التاريخي وتغير الموقع الأيديولوجي الذي ننطلق منه؛ فهي تارة أصالة ضد حداثة وهي تراث ضد معاصرة تارة أخرى وطورا آخر فهي رجعية ضد تقدمية وهكذا دواليك...

ولإدراك الحضور المكثف لهذه الثنائيات في خطابنا الثقافي، علينا أن نضع أيدينا على التناقض الضارب لدى تعريف مفهوم الهوية الذي أرّق كثيراً المنظرين الأيديولوجيين، ألا وهو انطواء الهوية المحكومة في تعريفها بمحدودية جغرافيتها وخصوصية تاريخيتها على مفهوم العالمية[1] إذ إن لكل أمة هوية. الأمر الذي يجعل تعريف الهوية مطاطاً جداً إلى درجة أن كل شعب يعطي لهذا المفهوم الثقافي - الاجتماعي تعريفاً خاصاً به. إذا ما أسقطنا خاصية الازدواجية هذه على تاريخ الشرق الإسلامي أدركنا موقع استعادة الهوية في مشروع النهضة العربية - الإسلامية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار السياق الاستعماري الذي ظهرت فيه النهضة، أمكننا القول إن نضال الأمة العربية والإسلامية السياسي من أجل استعادة السيادة وتحرير الوطن من الاستعمار يندرج في إطار نضال من أجل تشكيل هوية تتميز عن هوية المهيمن. وعلى غرار أية نزعة هوياتية، اتجهت النهضة إلى تشكيل صورة ذاتية جماعية تتيح لها تحقيق المفاصلة واستعادة الكرامة. ومنطلق هذا التشكيل للصورة يبدأ بنفي وإلغاء الآخر المستعمِر والمغتصِب للأرض وكل ما يفرزه من شعور

(1) Anderson, Benedict, L'imaginaire national, Traduit de l'Anglais par Emmanuel Dauzat, La Découverte, Paris, 1996, p. 1.

بالرفض والغضب والكراهية[1]. طبعاً هذا الآخر لن يكون سوى الغرب. وإن مراجعة تاريخية لعلاقة الشرق والغرب تبين جدلية هذه العلاقة، وقد أبان عبد الله العروي أن تاريخ {الشرق/ الغرب} عادة ما يروى على شكل سلسلة ثنائيات متضادة: يونان ضد الفرس، رومان ضد القرطاجنيين، بيزنطيون ضد العرب، وأخيراً أوروبيون ضد العرب المتطلعين للاستقلال[2].

وإذن فالإرادة الجماعية لتحقيق الاستقلال عن الهيمنة الغربية يتضمن حتماً إرادة الانتماء إلى هوية شرقية تكونت حيثياتها عبر القرون من خلال تمازج بين معطيات ثقافية ثابتة وأحداث تاريخية طارئة فرضت خيارات ثقافية لا يمكن التراجع عنها[3]. إنها هوية تشكلت خصوصيتها من خلال العلاقة الجدلية التي تربطها بالثقافة الغربية والتي تنوس بين عداء وانبهار، وهذا على جميع مستويات التمظهر الاجتماعي.

كانت هذه هي الخلفية التي واجهت بها مجموعة من المثقفين تيار العولمة القادم من الغرب، صاحب السجل الأسود في استعمار الآخر واستغلاله، فكان موقف المواجهة.

* نظرة المواجهة الحضارية:

ومن مظاهرها اختزال ظاهرة العولمة في مجموعة تصورات وأفكار هدامة لأنها ترمي إلى:

(1) Abdel Malek Anouar, La pensée politique arabe contemporaine, Ed. Seuil, Paris, 1970, p. 28.

(2) Laroui, Abdellah, Islam et modernité, La Découverte, Paris, 1987, p. 57.

(3) المرجع السابق، ص 5.

1 – مسح الهوية.

2 – المساس بالتقاليد والعادات.

3 – المساس بالدين والشخصية الإسلامية.

وأن خطورتها تتمثل في:

1 – المعارضة التامة لثوابت الدين.

2 – عدم التوفيق بين المادة والروح ولعل هذا هو أعظم سبب يهدد كيانها بالانهيار[1]. فهي "عولمة تعمل في إطار الاستعباد الذي يجمع الناس في رغبات محددة لا يمكن تجاوزها {الثقافة واحدة، السلوك واحد، الاقتصاد واحد} وكل ذلك بإنسان واحد أو بإنسان مأمرك"[2].

إن مثل هذه الرؤية تبطن موقفا نرجسيا مشوبا بالخوف ويقوم على تعزيز صورة للأنا متمثلة في الطابع الروحي القيمي الذي يختص به الشرق، وعلى انتقاص صورة الآخر الغربي بوصمه بطغيان المادة وانهيار القيم وفساد الأخلاق ورغبة هذا الغرب في جر كل البشرية إلى هذا المستنقع. ويبدو هذا الموقف هو استراتيجية جاءت كرد فعل على شعورنا بالانهزامية ورغبة منا في الانطلاق في مشروعنا النهضوي معتمدين على الخطاب الأخلاقي دون الالتفات إلى مجمل سنن التغيير حالمين بانهيار الآخر الذي تحول إلى "وكر كل الانحرافات مرجعين ذلك إلى حالة الفراغ الروحي الذي يعيشه المواطن الغربي، مما بسط المسألة واعتبر العالم بمثابة ساحة فارغة

(1) فكرة، سعيد، موقفنا من العولمة، مجلة الإحياء، المرجع السابق، ص 49.

(2) بوقرورة، عمر، أسئلة الحوار، بحث في ظل الإرباك المرجعي، مجلة الإحياء، المرجع السابق، ص 115.

من الإرادات العقائدية والسياسية"[1] وهذا ما حدث حين صدر عن دار النشر Guibert صدر لِـ Thomas Monfort كتاب من القطع الصغير سنة 1997 بعنوان: "التربية الجنسية في المدرسة الفرنسية" وهو عبارة عن صفارة إنذار لتحسيس الرأي العام الفرنسي بخطر الانزلاقات التي اندفعت إليها المجتمعات الحديثة، والمتمثل في إدراج مادة التربية الجنسية في المناهج التربوية وذلك بحجة مكافحة السيدا، إذ وجدنا أنفسنا أمام ثلة ممن كرّسوا جهودهم من أجل قضية استعادة الهوية، لا ترى في مثل هذا الموضوع إلا تأكيداً لوهم ساير رحلة العودة إلى الذات، والمتمثل في فكرة انهيار الحضارة الغربية، المعلنة عن قيام الشرق الإسلامي، وكأن ارتباط نهاية الغرب بنهضة الشرق أصبح حتمية تاريخية، لا بد لها من أن تتحقق، وما علينا إلا الانتظار.

الحقيقة أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة التي نعتقد، فإن مثل هذا الكتاب الذي يرفع صوته رافضاً تشييئ الإنسان، إنما هو علامة، لا أقول على صحة الجسم الغربي، فالمرض قد أتى عليه منذ زمن، ولكن دلالة على رفض هذا الجسم لحتمية الموت. فالمجتمع الذي يمارس النقد الذاتي مجتمع لا ينهار بالسهولة التي نتصورها، ولذلك نقول للذين يستعجلون انهيار الغرب، لا بأس أن تتجلدوا بالصبر، فقد يطول بكم الانتظار.

وقد طغى هذا الموقف على جهدنا العلمي في نقد الآخر في محاولة لإحداث قطيعة معرفية مع ثقافته، فنلجأ إلى محاكمته ومقاضاته مكتفين بإصدار أحكام أخلاقية، دون الوقوف على حيثيات القضية والعودة في تقصينا للمعرفة إلى أصول ومرتكزات هذه الثقافة وإلى

(1) محفوظ، محمد، المرجع السابق، ص 30.

مصادرها الأصلية ووضعها في سياقاتها التاريخية، وكل ذلك بحجة التصدي لنقد هذه الثقافة "المنحلة" من وجهة نظر ذاتيتنا الحضارية القائمة على المبادئ والأخلاق"، والتبشير بفكرنا الحضاري كبديل لهذه الثقافة التي استنفدت مخزونها الفكري والإبداعي. إن الدافع الذي حذا بهؤلاء المثقفين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة "كشف مواطن الخطر ومواقع الغزو الثقافي"[1] هو الرغبة في تحصين شباب الأمة ضد توافد هذه التيارات الغربية (الهدامة)، وهو شعار يخفي خوفا من اندثار هوية هي في طور النشوء في مواجهة فكر وافد من العدو التقليدي (الغرب) في زمن اضطلع فيه هذا الأخير بمهمة مقدسة تتمثل في تغريب العالم وسحق خصوصياته لصالح عولمة تسود خلالها نمطية تفكير وسلوك الغالب.

والحقيقة أن هذه النظرة تكشف انزواء أصحابها في بروج عاجية واختلاقهم لأهداف استراتيجية وهمية يخوضون دفاعا عنها حروبا دون كيشوتية. فتشخيصهم لحالة العولمة يتصف بكثير من الاختزالية والسكون وكأن العولمة أيديولوجيا ثابتة ذات مسار تاريخي مستقيم يكفي أن نقف ضده حتى نحقق مشروعية المقاومة وفعالية الأداء فنتخلص مما يسمى بأزمة الضمير. ومن يتأمل ظاهرة العولمة التي هي في طور النشوء وبالتالي غير مكتملة النمو، يدرك أنها حركة ذات اتجاهات متعددة تخضع لما يخدم المصالح الاستراتيجية لأرباب المال وأصحاب القرار. فاتهامها بمسح الهوية والقضاء عليها هي قراءة ساكنة لتاريخ متحرك، فهي قراءة مجتزأة مبتسرة.

(1) بوزوينة، عبد الحميد، نظرية الأدب في ضوء الإسلام - الأدب والمذاهب الأدبية -، دار البشير، عمان، 1990، ص 5.

فالعولمة تهتم بالدرجة الأولى بميزان القوى الذي تفرزه الصراعات العالمية بما فيها الصراعات ذات الطابع الهوياتي[1]، فهي لا تلتفت إلى قضية الهوية إلا بما يعود عليها بالنفع؛ فقد تندفع إلى محو كل ما له أثر لهوية ما في ظرف معين إذا ما كان ذلك يعيق أو يهدد مصالحها وقد تتوافق تلك المصالح مع حالة الاستقرار في حيز جغرافي يضمنه تجانس شعب والتفافه حول هوية معينة، وقد تكون الهوية والحفاظ عليها وما يمكن أن يشكله الآخر من خطر حقيقي أو وهمي على وجودها حطبا تستغله العولمة لإشعال حروب طائفية وعرقية في حيز معين لخدمة مصالحها وقد تضطر إلى تعبئة الرأي العام تحت راية شرعية الدفاع عن الوجود الهوياتي لتدمير قوى محلية تقف حجر عثرة دون تحقيق مصالحها، وقد تضطر إلى فبركة هوية واختلاقها لتكون قاعدة انطلاق لمواجهة الآخر في حرب مقدسة.

وهكذا فالعلاقة بين الهوية والعولمة علاقة متشابكة ومعقدة ولا يمكننا أن نختزلها في بعدها التصادمي. وأبرز مثال على هذا التشابك بين المفهومين بل والتحالف بينهما عبر فكرة استغلال الهوية لأغراض استراتيجية، هو العلاقة الوثيقة بين نشأة إسرائيل واكتشاف الغرب لهوية تمتد جذورها إلى أصول يهودية ومسيحية. وهو مثال يجدر بنا أن نقف عنده مليا.

* إسرائيل والجذور اليهودية - المسيحية للهوية الغربية:

فجأة تكتشف الثقافة الغربية أصولها اليهودية - المسيحية

(1) Bayart, Jean François, L'Illusion identitaire, Fayard, Paris, 1996, p. 167.

معرضة بذلك عن الجذور اليونانية - الرومانية التي اختلقتها ثقافة التنوير حتى تضفي شرعية حضارية على حربها ضد الكنيسة وقد أشرنا إلى ذلك في معرض حديثنا عن الصدمة الهوياتية في الغرب. إذ أصبحت هذه الثنائية الجديدة تتداولها الدوائر الثقافية وحتى السياسية الغربية بلهجة تبدو طبيعية، عادية، بل وحتى شرعية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح كيف حدث إقحام هذه المرجعية الجديدة في المعجم الثقافي الغربي مع ما يمكن أن يجره من تناقض بين الخطاب اللائكي المؤسس للمواطنة وبين الموروث الديني لهذه المرجعية التي يتعارض مع هذه المواطنة.

إن انزياح الخطاب الغربي في نهاية القرن الماضي من الاستناد على خلفية فكرية ذات أصول إغريقية إلى تبني مرجعية ذات جذور يهودية - مسيحية يمكن أن نرجعه إلى استعمال دوغمائي لهوية مزيفة من أجل تحقيق توازن اجتماعي في تركيبة مجتمع غربي أصبحت فيه الجالية اليهودية ذات نفوذ وتأثير على جميع المستويات، وأيضا من أجل تنقية الذاكرة الجماعية مما شابها من جرائم ارتكبت في حق اليهود بدءا بمعاداة السامية الذي تأسس عليه الخطاب الكنسي من خلال وضعه للسامية في قفص الاتهام بتهمة التواطؤ في مقتل المسيح عليه السلام وانتهاء بالمجازر النازية التي أتت على آلاف من اليهود[1]. فهذا الشعور بالذنب التاريخي الذي صوره اللوبي اليهودي في صورة الهلوكوست وحقن به الأنا الجمعي دفع هذا الأخير إلى محاولة التخلص من التهمة بالبحث عن زواج

(1) Corm, Georges, Orient Occident, la fracture imaginaire, La Découverte, Paris, 2002, p. 120.

بيـن هويتيـن حدث بينهما طـلاق بائن منذ ما يقارب العشـرين قرنا، وتـوج هذا الزواج غير الشـرعي بمولود هجين اسـمه دولة إسـرائيل التـي لا تمتلك من الشـرعية التاريخية والدينية ما يبرر نشـأتها. لكن الضميـر الغربي ممثلا في مؤسسـاته الثقافية والسياسـية الرسـمية قد تخلـص من أزمته التاريخية وعوّض اضطهاده لليهود المشـردين عبر التاريـخ بإعطائهم وطنا. ولـم يجد الخطاب اللائكي الغربي في كثير مـن أصواتـه حرجا في تبني دولة ذات أسـس دينيـة وعرقية. فالدعم اللامشـروط الذي تحظى به إسـرائيل من طرف كثير من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية هو الثمن الذي يجب أن يدفعه الغرب ليحدث مصالحة بين لائكية تدين الديانات وتحملها مسؤولية مآسي الإنسـان الحربيـة وبين هوية دينية تطهر اللائكية والمسـيحية معا من تهمـة اللاسـامية. الأمر الـذي مهد الطريـق لعولمة لم تجـد ندا بعد انهيار الكتلة الشـرقية سـوى ابتعاث صورة الشـرق الإسـلامي متهمة إيـاه باللاعقلانية والتزمت والعنف بعد أن اسـتثنت اليهودية وضمتها إلى خندقها.